شرح منظومة السير الى الله والدار الاخرة

الدرس الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن أتبع هداه أما بعد :

لا زلنا في التعليق على هذه القصيدة النفيسة للإمام الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى .

المتن: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم أغفر لنا ولوالدينا ولشيخنا وللحاضرين وللمستمعين قال المصنف رحمه الله تعالى في منظومته السير إلى الله والدار الآخرة :

سعد الذين تجنبوا سُبل الردى ... تيمموا لمنازل الرضوان
فهم الذين أخلصوا في مشيهم ... متشرعين بشرعة الإيمان
وهم الذين بنوا منازل سيرهم ... بين الرجا والخوف للديان
وهم الذين ملا الإله قلوبهم ... بوداده ومــــحبة الرحمان
وهم الذين أكثروا من ذكرهِ ... في السر والإعلان والأحيانِ
يتقربون إلى المليكِ بفعلهم ... طاعاته والتركِ للعِصيانِ
فعل الفرائض والنوافل دأبهم ... مع رؤيةِ التقصير والنقصانِ

الشيخ: مر معنا مع هذه القصيدة في مقامات العبودية العابدين لله عز وجل وأن هذا هو سبيل السعادة، وذكرنا من مقامات المتعبدين الإخلاص لله سبحانه وتعالى ومتابعة النبي عليه الصلاة والسلام تكلمنا عن مقام الرجاء وعن مقام الخوف من الله عز وجل، وتحدثنا أيضًا معهما عن المحبة، وكنا قد وقفنا على مقام المحبة لله سبحانه وتعالى وهو قوله رحمه الله:

وهم الذين ملا الإله قلوبهم ... بوداده ومــــحبة الرحمان

من أعلى مقامات العبوية والعبادة هو مقام المحبة، وهذا المقام لا يفارق المؤمن لا في الدنيا ولا في الآخرة بخلاف مقام الخوف الذي تكلمنا عنه سابقًا فإنه يفارق المؤمن في الجنة والآخرة فإن في الجنة لا خوف ولا هم يحزنون، وأما المحبة فإنها باقية في الدنيا وتتضاعف يوم القيامة وهذا دليل على عظم هذه المحبة أو عظم هذا المقام للتعبد، الله عز وجل بيّن أن أهل الإيمان يحبون الله عز وجل حبًا شديدًا (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) (البقرة – الآية ١٦٥) الله عز وجل ذكر

أهل الإيمان بأنهم (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) (المائدة – الآية ٥٤) وذكر جملة من علامات أهل الإيمان قال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) (المائدة – الآية ٥٤)، ثم ذكر علامات هؤلاء ولهم علامات كثيرة (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ) هذه كلها علامات من أحب الله عز وجل صدقًا وحقًا فمن أحب الله سبحانه وتعالى وأحب نبيه عليه الصلاة والسلام قدّم جميع ما أخبر الله به وأمر به وأمر به النبي صلى الله عليه وسلم على محابه وعلى هواه هذه أعظم علامات صدق المحبة، الله عز وجل قال (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا) (التوبة – الآية ٢٤)، هذا من الوعيد (حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) ثم وصفهم بأنهم فاسقون لأنهم قدّموا محبة هذه الأشياء محبة الدنيا على محبة الله والدار الآخرة (واللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) ، فمن أحب الله حق المحبة وجد حلاوة الإيمان، وحلاوة الإيمان لا يجدها العبد إلا إذا أحب الله ورسوله وحقق لوازم هذه المحبة، (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله) حبه لله وفي الله، حقق الحب في الله والبغض في الله عز وجل، يحب من يحبه الله، يحب الله ويحب من يحبه الله، ويحب أوامر الله عز وجل ويستسلم لها وينقاد لها، والناس إخوتي في الله في هذه المحبة من أهل الإيمان على ثلاثة درجات وهم الذين ذكرهم الله عز وجل في قوله (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ) (فاطر – الآية ٣٢).

إذًا أول هذه المراتب: من كان كامل المحبة هؤلاء السابقون في الخيرات، الذين يفعلون الواجبات ويبتعدون عن المحرمات ويؤدون النوافل ويبتعدون عن المكروهات .

والثاني: وهو المقتصد في المحبة وهو الذي عمل الفرائض وأبتعد عن المحرمات ولم يؤد النوافل.

والثالث: وهو الناقص المحبة وهذا الظالم لنفسه الذي قصّر في حق ربه فأرتكب الذنوب والمعاصي ولكنه في إطار الإسلام والإيمان .

وأعظم لوازم المحبة هي متابعة النبي صلى الله عليه وسلم الإتباع، أعظم لوازم المحبة هو الإتباع، لذلك الله عز وجل قال (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) (آل عمران – الآية ٣١) أعظم علامات أنك تحب الله حقًا وصدقًا أن تتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم في هديه وما نقله عن ربه، يقول الحسن البصري رحمه الله "أدعى قوم محبة الله فأنزل هذه الآية في إبتلائهم" أهل العلم يسمونها آية المحنة يمتحن فيها من هو محب لله صدقًا أو أنه كاذب في دعواه، فإن أتبع رسول الله وسار على هديه وسنته فهو محب لله حقًا وصدقًا لذلك يقول شيخ الإسلام أبن تيمية رحمه الله

"فمحبة الله ورسوله والمتقين تقتضي فعل محبوباته وترك مكروهاته" تقتضي ماذا ؟ فعل محبوباته وترك محظوراته، والناس يتفاضلون في هذا تفاضلًا عظيمًا فمن كان أعظم نصيبًا من ذلك كان أعظم درجّة عند الله عز وجل، وإذا عمل العبد بطاعة الله وأدى نوافل الله وفرائض الله كان من ثمرات محبته في الله أن يحبه الله عز وجل ومن أحبه الله فهو السعيد الذي وفقه الله يوفقه ويسدده في خطاه وفي أخذه وتركه وفي ممشاه وفي فعله وفي حياته وفي سمعه وفي بصره كما قال عليه الصلاة والسلام (من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب) ولا يزال العبد يتقرب إلى الله بالنوافل حتى يحبه (وما تقرب الي عبدي بشيء أحب إلي مما أفترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها) أي أن الله يوفقه في سمعه فلا يسمع إلا الحلال، ويوفقه في بصره فلا يرى إلا ما يرضي الله، ويوفقه في ممشاه وفي أخذه وفي تركه فيوفقه في كل أموره وهذا من أعظم ثمرات المحبة لله عز وجل، أبن القيم رحمه الله ذكر عشرة أسباب جالبة لمحبة الله عز وجل إذا أردت أن تحب الله وأن الله يحبك فعليك بهذه العشر سنذكرها بإختصار .

الأول: قراءة القرآن وتدبره وتفهم معانيه فإن هذا علامة على محبتك لله، أن تكثر من قراءة كلامه .

والثاني: النوافل بعد الفرائض، الإكثار منها من أسباب محبة الله لك .

والثالث: دوام ذكر الله عز وجل، وهذا من علامات المحبة لأنك كلما أحببت شيئًا أكثرت من ذكره .

والرابع: إيثار ما يحبه الله على ما تحبه نفسه، إيثار ما يحبه الله على هوى نفسك .

والخامس: التأمل في أسماء الله وصفاته، وآثار أسماء الله وصفاته هذا يدعوك إلى المحبة لله إذا ما تتدبر أن الله حكيم ورازق وغفور رحيم هذا يورثك محبتك لله عز وجل .

والسادس: التأمل في نعم الله، وهذا من أعظم ما يثمر محبتك لله عز وجل تتدبر ما أنعم الله به عليك من الصحة والمال والدنيا والولد فهذا يدعوك إلى محبة الله عز وجل .

والسابع: الإنكسار، إنكسار القلب بين يدي الله ينكسر قلبك لله عز وجل وتبكي في الخلوات راجيًا رحمة الله وخائفًا عذابه .

والثامن: وهو الخلوة وقت النزول الإلهي في ثلث الليل الآخر، حاسب نفسك، من منا يقوم في هذا الليل؟ كلنا مقصرون ولكن السعيد من عالج نفسه وأدرك نفسه ما دام في الحياة والعمر فرصة .

والتاسع: مجالسة أهل الخير والصلاح والمحبين لله عز وجل هذا يدعوك ويحثك على تذكر الآخرة وأزديادك من محبة الله عز وجل .

والعاشر والأخير: الإبتعاد عن كل سبب يحول بين العبد وبين الله من شواغل الدنيا ومن المباحات الإكثار منها والبعد عن الطاعات، الشواغل، الإنشغال بالدنيا وترك الآخرة .

الله عز وجل يعاقب العبد أنه يحول بين المرء وقلبه فإذا حال بين المرء وقلبه فما أعظم الخسارة لذلك إذا أردت أن يحبك الله فأزهد في الدنيا، (جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس فقال النبي صلى الله عليه وسلم أزهد في الدنيا يحبك من ؟ الله وأزهد فيما عند الناس يحبك الناس)، (أزهد في الدنيا

يحبك الله وأزهد فيما عند الناس يحبك الناس)، هذا أيضًا من أعظم الأسباب التي تورث محبة الله سبحانه وتعالى .

فهذا المقام مقام المحبة "وهم الذين ملا الإله قلوبهم" ، أهل الطاعة والعبادة يملأ الله قلوبهم من محبتهم لربهم سبحانه وتعالى وودهم لله عز وجل وفقرهم لرحمة الله عز وجل "بوداده ومحبة الرحمن" .

ومن أعظم المقامات أيضًا مقام الذكر وهو الذي قال فيه "وهم الذين قد أكثروا من ذكره في السر والإعلان والأحيان" ، مقام الذكر من أعظم ما يجلوا القلب ويصفيه، القلب إخوتي يصدأ كما يصدأ النحاس والحديد وجلاء هذا الصدأ هو بذكر الله عز وجل (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد – الآية ٢٨) فإن الذكر يجلوه حتى يدعه كالمرآة لأن القلب يصدأ بأمرين بالغفلة وبالذنب، القلب يصدأ بالغفلة وماذا ؟ والذنب، والذي يجلوه أيضًا أمران الغفلة يقابلها الذكر، والذنب يقابله الإستغفار، فالقلب يصدأ بالغفلة والذنب ويجلو ويصفو بالذكر والإستغفار، هذا ما ذكره أبن القيم رحمه الله تعالى، الله عز وجل حث على ذكره وذكر فضائل الذكر ونبينا صلى الله عليه وسلم ذكر جملة كبيرة من فضائل الذكر (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا) (الأحزاب – الآية ٤١) (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ) (البقرة – الآية ١٥٢) ، (الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ) (الأحزاب – الآية ٣٥) ، وأخبر أن من صفات أهل الإيمان كما ذكر المؤلف يذكرون الله في السر والعلن وفي جميع أحيانهم وأحوالهم (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (آل عمران – الآية ١٩١) هذا من ذكر الله عز وجل، من ذكر أن من يبتعد عن ذكر الله ويتكاسل في ذكر مولاه هذه علامة النفاق وهدي المنافقين الذين قال الله عز وجل عنهم (وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا) (النساء – الآية ١٤٢)، فالذكر لله عز وجل من أفضل الأعمال كما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم (ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق (الفضة) وخير لكم من أن تلقوا عدوكم (فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم) جهاد في سبيل الله) شهادة (قالوا بلى يا رسول الله قال ذكر الله تعالى) ، وذكر الله عز وجل يعينك حتى في أمور الدنيا

ويفتح لك الخير ويفتح لك الرزق ويبارك لك في عمرك وفي حياتك ويعينك على الطاعة لذلك جاء في حديث عبدالله أبن بسر (أن رجلًا قال يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فدلني على شيٍء أو عمِلٍ أتشبث به) يقول هذا الرجل شرائع الإسلام كثرت فأريد أمرًا يعينني عليها على أمور الآخرة، هذا معنى قوله (علمني أمرًا يعينني على هذه الطاعات وييسرها عليّ) لأن النفس تجد مشقة، الجنة حفت بالمكاره فقال النبي صلى الله عليه وسلم (لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله عز وجل) .

فذكر الله عز وجل يعينك حتى في أمور الدنيا وحاجاتها، حتى في عملك، لذلك فاطمة رضي الله عنها لما جاءت وسالت النبي صلى الله عليه وسلم خادمًا قال (ألا أدلكي على خيرٍ من خادم ؟ قالت ماذا يا رسول الله قال تسبحين الله ثلاثًا وثلاثين وتحمدين ثلاثًا وثلاثين قبل النوم وتكبرين أربعًا وثلاثين هذا خير من خادم)، ما معنى هذا ؟ أي أنها تعينك على أمور الدنيا وتيسرها لك والعبد كلما أزداد ذكرًا لله كان الله معه وكلما أزداد غفلة عابه الله عز وجل ولم يوفقه لذلك النبي صلى الله عليه وسلم يقول كما في الحديث القدسي قال الله (أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه وإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي) هذا من أعظم الأعمال، أفضل الفضائل أن يذكرك الله سبحانه وتعالى، يذكرك في الملأ الأعلى بين الملائكة، لا شك أن هذا من أعظم الأمور وأعظم ما يعطيك الحلاوة، حلاوة الإيمان كما ذكرنا في المحبة ذكر الله عز وجل من اعتاده وجد الحلاوة بلا ريب ولا شك، لذلك يقول الحسن البصري رحمه الله "تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء في الصلاة وفي الذكر وقراءة القرآن" أنت أسال نفسك هل تجد حلاوة في صلاتك ؟ هل تجد حلاوة في قراءة القرآن ؟ هل تجد حلاوة عندما تذكر الله سبحانه وتعالى وتستغفر في خلواتك في سكونك في مجالسك ؟ يقول في الصلاة وفي الذكر وفي قراءة القرآن، فإن وجدتم، أسال نفسك، فإن وجدتم وإلا فأعلموا أن الباب مغلق، إذا كان الباب مغلق يحتاج منك جهاد حتى تفتحه بالأعمال الصالحة وبذكر الله وإحسان الصلاة والخشوع فيها .

وفضائل الذكر كثيرة يا إخوة، أبن القيم رحمه الله تعالى في كتابه النفيس "الوابل الصيب" ذكر جملة من هذه الفضائل والفوائد تزيد على مائة فضيلة وعددها رحمه الله وذكر قرابة الثمانين من فضائل ذكر الله سبحانه وتعالى، إرجع إليه يساعدك على هذا العمل، كم من الأوقات نقضيها في المشاغل، في السكوت، في مجالس الغيبة والنميمة، في مجالس اللهو والمباحات، التي لو بذلنا ولو ربعها في ذكر الله عز وجل لكنا من السعداء، هذا الوقت الذي نضيعه مع هواتفنا، كلنا مقصرون، لو قضينا عشره في ذكر الله عز وجل لكان ثوابًا عظيمًا، لكن الشيطان وطرقه وأساليبه كما ذكرنا في طرقه في الدرس الماضي، ومن جميل الفوائد ما ذكره أبن القيم رحمه الله أن الذكر على نوعين، ذكر الله سبحانه وتعالى على نوعين :

النوع الاول: ذكر أسمائه وصفاته والثناء عليه وتنزيهه عما لا يليق، النوع الاول ذكر أسمائه وصفاته والثناء عليه بها وتنزيهه عن صفات النقص وهذا على نوعين أيضًا:

النوع الاول: إنشاء الثناء عليه بها من الذاكر، أي أنك تذكر أسماء الله عز وجل وصفاته التي فيها ثناء عليه مثل قولك سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله وأفضل هذا النوع هو أجمعه ثناءًا كلما أزداد ذكر الله ثناءًا كلما كان أفضل لذلك سبحان الله وبحمده أفضل من سبحان الله فإذا أزدادت ثناءًا أزدادت فضلًا لذلك قول الرجل سبحان الله عدد خلقه أفضل من سبحان الله .

والنوع الثاني: في هذا النوع الأول هو الخبر عن الله بأحكام أسمائه وصفاته من لوازم الأسماء والصفات مثلًا تقول الله سبحانه وتعالى يسمع أصوات العباد النوع الاول تقول سميع والثاني تقول الله يسمع أصوات العباد لتخبر عن الله عز وجل وأفعاله ومن لوازم صفاته ويرى حركاتهم ولا يغيب عنه شيء، هذا من ذكر الله سبحانه وتعالى لأنه ثناء وأفضل هذا النوع ما أثنى الله به على نفسه أو اثنى به رسوله على ربه يعني الوارد وهذا النوع منه ما هو حمد ومنه ما هو مجد ومنه ما هو ثناء، (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) قال حمدني عبدي، حمد (الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ) قال أثنى عليّ عبدي، (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) قال مجّدني عبدي .

والنوع الثاني من الأنواع يعني النوع الأول ذكر أسمائه وصفاته .

النوع الثاني: ذكر أمره ونهيه وأحكامه، لما تذكر الصلاة وصفاتها وأحكامها هذا ذكر لله عز وجل لا يفهم الذكر فقط سبحان الله والحمدلله هذا التسبيح كله ذكر لله، العلم ذكر ونشر العلم ذكر وما نحن فيه ذكر، نسأل الله الإخلاص ولنا ولكم القبول .

وهذا النوع الثاني أيضًا على نوعين:

الاول: ذكره بذلك إخبارًا عنه أي أن تقول أمرنا ربنا بكذا نهانا عن كذا .

والثاني: ذكره عند أمره فيبادر إليه، وعند نهيه فيهرب منه، يعني لما تسمع أمر الله فتبادر إليه هذا ذكر لله عز وجل، ولما تسمع نهيًا من الله عز وجل عن أمر فتنتهي هذا داخل في ذكر الله عز وجل إذًا فباب الذكر واسع كلما أزداد الإنسان ذكرًا كلما أزداد فضلًا ومنزلًة ودرجًة عند الله سبحانه وتعالى .

يقول رحمه الله:

يتقربون إلى المليكِ بفعلهم   طاعاتهِ والتركِ للعِصيانِ

وهذا مقام التقرب ومقام التقوى وقوله والترك للعصيان مقام التوبة، ذكر في هذا البيت مقامين مقام تقرب بفعل أوامره والإبتعاد عن معاصيه وهي تقوى الله عز وجل .

والثاني: مقام التوبة .

أما مقام التقرب الله عز وجل حث عباده على التقرب (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) (آل عمران – الآية ١٣٣) ثم لما ذكر المسارعة إلى مغفرة الله، كيف تكون المسارعة إلى مغفرة الله ؟ بفعل أوامره والإبتعاد عن معاصيه قال تدبر (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ) (آل عمران – الآية ١٣٣-١٣٤) هذا في فعل الأوامر (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) وفي ترك المعاصي (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (آل عمران – الآية ١٣٥) فمن كان في هذا المقام حاز الثواب والأجر والجنة (أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) (آل عمران – الآية ١٣٦) الله عز وجل يقول (أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) (المؤمنون –

الآية ٦١) فكلما أزداد الإنسان مسارعة كلما أرتفع منزلة فكان من السابقين السابقين، فإذا قل نصيبه من الطاعات والبعد عن المعاصي نزل إلى أهل اليمين وإذا هلك مع الهالكين بفعل المعصية وأرتكاب الشرك كان من أهل الشمال أعاذنا الله وإياكم وجعلنا وإياكم من السابقين، وهذا حقيقة التقوى لذلك قال الطلق أبن حبيب رحمه الله "التقوى هي العمل بطاعة الله على نور من الله ترجوا ثواب الله وأن تبتعد عن معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله" ولاحظ أنه جمع بين الفعل والترك وجمع بين الرجاء والخوف حقيقة التقوى والإنسان إخوتي في الله كلما أزداد طاعة فتح الله له طاعات أخرى وكلما أزداد معاصي وتساهل فيها وأبتعد عن التوبة فتحت له شرور أخرى (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) (الصف - الآية ٥) وهذا من فضل الله عز وجل على أهل الطاعة، يقول أبن القيم "ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويئلفها ويحبها ويؤثرها أعتاد على فعل الطاعة والإحتساب لها ومحبتها والمبادرة إليها قال حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته عليه الملائكة تؤزه إليها أزًا" فضل الله عز وجل عليه وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها، يصبح المرء يقوم لقيام الليل لا منبه ولا شيء صلاة الفجر يحتاج القيام اليها هذا من فضل الله ورحمته بها أعتاد الطاعة وعوّد نفسه عليها ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله إليه الشياطين فتؤزه إليها أزًا أما مقام التوبة والرجوع إلى الله عز وجل فهذا من أفضل الأعمال وهو واجب على العبد على الفور (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (النور - الآية ٣١) والناس بين شيئين إما تائب وإما ظالم لا يخرج منهما إما تائب وإما ظالم (وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (الحجرات - الآية ١١) فالناس إما تائب وإما ظالم فعالج نفسك بالتوبة والرجوع إلى الله عز وجل، الله سبحانه وتعالى أمرنا بالتوبة النصوح والمبادرة إليها (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا) (التحريم - الآية ٨) التوبة التي حققت الشروط، النبي عليه الصلاة والسلام الذي قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يقول "يا ايها الناس توبوا إلى الله توبوا إلى ربكم فإني لأتوب إليه وأستغفره في اليوم أكثر من مائة مرة، ويستغفر الله في المجلس الواحد سبعين مرة أو مائة مرة، فكيف بحالنا نحن الضعفاء ؟ الله سبحانه وتعالى الغني عنا وعن أعمالنا وعن طاعاتنا ينادي عباده في الثلث الليل الآخر من

يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ الله عز وجل الغني عنا وعن طاعاتنا ولا تضره معاصينا (يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل)، كل منا يا إخوة يعرف ذنوبه ويعرف ما قصّر في حق ربه وما أرتكب من الخطايا وما يقوم به في الخلوات حين يغلق على نفسه الأبواب لكن المسألة حساب وجزاء وتكتب عليك الملائكة في كتاب لا يغادر صغيرًة ولا كبيرًة إلا أحصاها، إذا دخل عليه أحد ترك معصيته وحجب نفسه، الله عز وجل ينظر إليه، فلا نجعل الله عز وجل أهون الناظرين إلينا بفعل المعاصي وترك الطاعات، وهذه المعاصي من الفوائد الجميلة التي ذكرها أبن القيم يضاف إلى خطوات الشيطان التي ذكرناها العشرة والعوائق والعوائد والعلائق قال "أصول المعاصي ثلاث الأول تعلق القلب بغير الله" وهذا يدخل فيه الرياء والشرك الأكبر والشرك الأصغر وصرف العبادة لغير الله، والثاني طاعة القوة الغضبية ما يورثه الغضب من المعاصي ويدخل فيه الغضب والعجب والكبر وغير ذلك، والثالث طاعة القوة الشهوانية ويدخل فيها الفواحش والزنا وغيرها من المعاصي التي تتعلق بالشهوات، وحب المال والربا وغيره وهذا ذكره الله عز وجل في الآيات التي قرأناها من سورة الفرقان (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ) (الفرقان – الآية ٦٨) هذا تعلق القلب بغير الله (وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) وهذا القوة الغضبية (وَلَا يَزْنُونَ) وهذا القوة الشهوانية فذكر الله عز وجل هذه الأمثلة الثلاث ليبين أصول المعاصي التي يجب التوبة منها .

وشروط التوبة كما تعرفون بإختصار هي خمسة شروط التوبة خمس:

الاول: الإخلاص وهذا تكلمنا عنه .

والثاني: الندم كما في حديث أنس قال الندم التوبة، وقال شيخ الإسلام أبن تيمية أعظم شروط التوبة الندم .

والثالث: العزم على عدم العود على هذا الذنب، يعقد قلبه على أن لا يعود إليه أبدًا (وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار) .

والرابع: عدم الإصرار، لا يجوز أن يقول أستغفر الله وأتوب إليه وهو مصر على الذنب ولم يتركه (وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (آل عمران – الآية ١٣٥).

والخامس: إرجاع الحقوق إلى أهلها إن كان الذنب يتعلق بحقوق الأخرين .

والتوبة تغلق بوقتين وقت عام ووقت خاص، أما الوقت العام وهو طلوع الشمس من مغربها (إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها) والوقت الخاص لكل عبد هو وصول أو بلوغ الروح الحلقوم الإحتظار (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر) كما قال عليه الصلاة والسلام .

يتقربون إلى المليكِ بفعلهم طاعاتهِ والتركِ للعِصيانِ

فعل الفرائض والنوافل دأبهم مع رؤية التقصير والنقصانِ

وهذا يا إخوة من أعظم مقامات التعبد وهو مقام التقصير، أن ينظر العبد في حاله أنه مقصر في حق الله سبحانه وتعالى، مقصر في حق الله، فالعبد يعمل الطاعات فرائض ونوافل كما في الحديث الذي ذكرناه (من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب ولا يتقرب إلي عبدي بشيء أحب مما أفترضته عليه ولا يزال يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه) العبد يتقرب إلى الله بالفرائض والنوافل، فالفرائض لا شك أنها من الواجبات اللازمة فعلها، والنوافل هي من فضائل الأعمال التي لها فضائل كثيرة في النصوص الشرعية، كل نافلة لها فضيلة خاصة وكلها ترفع الدرجات وتزيد في الحسنات، ومن فوائدها النوافل أنها تجبر النقص الذي يكون في الفرائض، ما منا من أحد يصلي فريضة إلا ويأخذه الشيطان يمينًا ويسارًا ويسرح به في أودية الدنيا فلا يخرج من صلاته إلا بعشرها أو أقل من ذلك، كيف تكمل هذا النقص ؟ بمجاهدة النفس على الخشوع وفعل النوافل لذلك قال عليه الصلاة والسلام (إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله الصلاة فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وخسر) وإن أنتقص من فريضة قال الرب أنظروا هل لعبدي من تطوع ؟ نوافل فيكمل بها ما أنتقص من الفريضة ثم يكون سائر عمله على ذلك، يعني الصيام والزكاة، صيام رمضان يكمله صيام النوافل، الزكاة الواجبة يكملها الصدقات، وهكذا حج الفريضة يكمله حج النافلة، والعمرة كذلك وغيرها من سائر الأعمال .

ورؤية التقصير في العمل هذا الذي يفوت كثير من المتعبدين فيأخذه الغرور في عبادته فيظن ما بينه وبين الجنة إلا الموت لكن أهل الطاعات وأهل الإخلاص هذا من أعظم مقامات الإخلاص أنه مهما فعل من الطاعات وأزداد من القربات يرى أنه مقصر في حق الله عز وجل فمهما عمل من الإعمال الصالحة يخجل من عمله ويشتد حيائه من الله سبحانه وتعالى لماذا ؟ لأنه يرى أن هذا العمل الصالح حتى وإن بذل الجهود الله سبحانه وتعالى يستحق أعظم منه ولا يساوي نعم الله عز وجل عليه لذلك قالت عائشة للنبي عليه الصلاة والسلام (يا رسول الله قول الله سبحانه وتعالى "وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ " أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر ؟) يعني هذا الذي يفعل المعاصي فيخاف الله عز وجل أن يعاقبه هل هذا معنى هذه الآية ؟ (قال لا يا أبنة الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف ألا يقبل الله منه) (يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) يخاف من ربه لأنه في مقام التقصير الذي هو أعلى مقامات الإخلاص أو من أعلى مقامات الإخلاص قال الحسن البصري رحمه الله "عملوا والله بالطاعات وأجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم" يعمل الطاعات ويخاف أن ترد عليه، إن المؤمن جمع إحسانا وخشية المؤمن يجمع بين أمرين إحسان في العمل وخشية من الله أن لا يتقبل منه يخاف على نفسه والمنافق جمع إساءة وأمنًا المؤمن جمع إحسان وخشية والمنافق يجمع بين إساءة ويأمن مكر الله فوق ما هو مسيء يقول الله غفور رحيم وأما صاحب الطاعة والإخلاص يقوم الليل كله ويخشى أنه قصر في حق الله سبحانه وتعالى وما أدى حق الله عز وجل لذلك أبن القيم يقول "المؤمن جمع إحسانًا في مخافة وسوء ظن في نفسه" المؤمن جمع احسانا في مخافة وسوء ظن في نفسه، "والمغرور حسن الظن بنفسه مع إسائته" وهذا الخلق وهذا المقام من إحسان خلقك مع خالقك سبحانه وتعالى كيف أن تعلم أن كل ما يأتي منك يوجب إعتذارًا كل ما يأتي منك إلى ربك من الطاعات يوجب إعتذارًا وكل ما يأتي من الله يوجب شكرًا ، كل ما يأتي من نفسك يوجب ماذا ؟ إعتذارًا وكل ما يأتي من الحق من الله سبحانه وتعالى يوجب شكرًا وألا ترى له وفاءًا بدًا، وألا ترى له من الوفاء بدًا، يعني أن ما أنعم الله عز وجل عليك توقن أنك يجب أن تشكره وأنك مهما فعلت فإنك لن تصل إلى حقيقة الشكر كما سيأتي حديثنا عن الشكر وحقيقته

وهذا الخلق وهو أن تنظر في تقصير نفسك مبني على قاعدتين مما يساعدك في هذا المقام قاعدتان:

الأولى: أن تعلم أنك ناقص، وكل ما يأتي من الناقص ناقص، الإنسان يعلم من نفسه أنه مقصّر وناقص غير كامل فإذا عرف من نفسه أنه ناقص غير كامل عرف أنه لن يؤدي حق الله عز وجل .

الأمر الثاني: إستعظام كل ما يصدر من الله سبحانه وتعالى والإعتراف بأنه يوجب الشكر، تاتيك النعمة من الله عز وجل تستعظمها وتعرف قدرها ومنزلتها ومكانتها بنظرك الأول أنك ناقص ومهما فعلت لن تؤدي شكر هذه النعمة لذلك قال عليه الصلاة والسلام (أعلموا أنه لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يارسول الله ؟ قال ولا أنا) أي أن الجنة مهما عملنا لا تكون مساوية هذا الثواب، لا يكون مساويا لهذا العمل الذي قدمناه وإنما هو فضل الله ورحمته أعطانا ويعطي عباده من الفضل ما هو أعظم من عمله الذي هو فيه التقصير ولأجل هذا يا إخوة جاءت النصوص الشرعية المتنوعة التي حثت على الإستغفار بعد العمل تدبر هذه النقطة مهمة وهي أنه جاءت نصوص في أوجه كثيرة الحث على الإستغفار بعد عمل من الأعمال لماذا ؟ حتى يغرس في قلب المؤمن أنه مهما عمل أنه مقصّر في حق الله لذلك أنه إذا أنتهى من صلاته هذا الأول أنتهى من صلاته قال ماذا ؟ أستغفر الله أستغفر ثلاثًا مع أنه أنتهى من عبادة لكنه يستغفر لتقصيره .

الثاني: من يقوم الليل يصلي في الليل عليه أن يستغفر لأنه مهما قام الليل فإنه محتاج للإستغفار لأنه مقصر في حق ربه لذلك أثنى الله عز وجل على (وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ) (آل عمران – الآية ١٧) (وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) (الذاريات – الآية ١٨) لان هذا العبد يعرف مع أنه قام الليل ومستيقظ في السحر ويذكر الله ولكنه يعرف أنه مقّصر في حق الله فكيف بمن لا يصوم ولا يقوم وبعيد عن الله عز وجل؟ الإنسان إذا يتوضإ وهذا المثال الثالث إذا يتوضأ يقول "اللهم أجعلني من التوابين" مقصّر في حق الله عز وجل في الوضوء .

الرابع: في الحج (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ) (البقرة – الآية ١٩٩) مع أنه ذهب إلى الحج وجاهد بنفسه وماله في الحج ومع ذلك أستغفر فإنك مقّصر في حق الله، الإنسان لما يجلس وإن كان مجلسه مجلس ذكر يقوم فيقول ماذا ؟ سبحانك اللهم ربنا وبحمد أستغفرك وأتوب إليك.

وأعظم مثال على أن العبد مطلوب منه إذا ختم عمره وحانت ساعته أن يكثر من الإستغفار أستغفر الله ختم العمر بالإستغفار مع الشهاة لذلك عائشة رضي الله عنها قالت أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصغت إليه قبل أن يموت وهي مسندته إلى صدرها رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم يقول (اللهم أغفر لي وأرحمني وألحقني بالرفيق الأعلى) وهو نبي وخير البشر وخير الرسل وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر (اللهم أغفر لي وأرحمني وألحقني بالرفيق الأعلى) .

الإستغفار ورؤية التقصير في العمل من أعظم أسباب قبول العمل إذا كنت تريد أن يقبل الله عملك أنظر هذه النظرة وألحقه بالإستغفار لذلك يقول شيخ الإسلام أبن تيمية رحمه الله الإستغفار يخرج العبد من فعل المكروه إلى فعل المحبوب ومن العمل الناقص إلى العمل التام ويرفع العبد من المقام الأدنى إلى المقام الأعلى فهذا مقام الذي قال:

فعل الفرائض والنوافل دأبهم ... مع رؤية التقصير والنقصانِ

المتن:

صبروا والنفوس على المكاره كُلها ... شوقا إلى ما فيه من إحسانِ
نزلوا بمنزلة الرضى فهم بها ... قد أصبحوا في جُنة وأَمانِ

الشيخ: نعم من أعظم مقامات العبد مقام الصبر فهو واجب بإجماع الأمة، الصبر واجب على الجميع والصبر نصف الإيمان لأن الإيمان صبر وشكر والصبر نصف الإيمان الله عز وجل أثنى في كتابه على الصابرين (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) (الزمر – الآية ١٠) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (آل عمران – الآية ٢٠٠) الله عز وجل أمر بالصبر وحث عليه (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) (البلد – الآية ١٧) وسورة

العصر (إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) (العصر – الآية ٢-٣) (وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (الأنفال – الآية ٤٦)، (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) (البقرة – الآية ٤٥) ، الصبر في القرآن كما قال الإمام أحمد رحمه الله ذكر الله الصبر في تسعين موضعًا من كتابه وأبن القيم رحمه الله في مدارج السالكين ذكر أن الصبر في القرآن ذكر على ستة عشر وجهًا الآيات التي فيها الصبر ذكرت على ستة عشر وجهًا آيات مثلًا الأمر به النهي عن ضده هذا وجهان الثناء على أهله هذا وجهان وهكذا ذكر ستة عشر وجها في ذكر الصبر والنبي صلى الله عليه وسلم قال (والصبر ضياء) وتدبر هنا لم يقل أن الصبر نور وإنما قال (الصبر ضياء) لأن هناك فرق بين النور والضياء النور يضيء بدون إحتراق أما الضياء فنور مع إحتراق لذلك سمى الصبر ضياءًا ولم يسمه نورًا لأن الصبر ينير عليك طريقك لكنه يحتاج إلى مشقة وقوة ومجاهدة على النفس فسماه ضياءًا ولم يسمه نورًا كما قال الله عز وجل (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا) (يونس – الآية ٥) لأن الشمس فيه إحتراق، القمر ليس فيه إحتراق ولما ذكر شريعة موسى قال الله عز وجل (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ) (الأنبياء – الآية ٤٨) أما لما جاء إلى شريعة النبي صلى الله عليه وسلم سماها نورًا لأن شريعة موسى كان فيها الأصرار والأغلال فيها شدة فالصبر شاق على النفوس يحتاج إلى مجاهدة النفس وحبسها وكفها عما تهواه والصبر إخوتي في الله ثلاثة أنواع أو ثلاث درجات وهي تتفاوت في الفضل .

الأول: الصبر على الطاعة .

والثاني: الصبر عن المعصية .

والثالث الصبر على أقدار الله .

أيهما أفضل ؟ الأول أفضلها الصبر على الطاعة ثم يليه الصبر عن المعصية ثم يليه الصبر على أقدار الله، فأفضل أنواع الصبر هو الصبر على الطاعة لذلك أبن تيمية يقول "الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر عن أجتناب المحرمات وأفضل لأنها هي الغاية الأساسية فعل الطاعة ترك المعصية هي وسيلة لفعل الطاعة قال فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى

الشارع من مصلحة ترك المعصية ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية وضرب على ذلك مثال قال كما في قصة يوسف في الجب .

ومن الطاعات من يشتمل على أنواع الصبر الثلاث مثل الصيام، الصيام صبر على الطاعة ومن صام أبتعد عن المعصية، صبر عن المعصية، ولا بد عليه من اقدار الله الجوع والعطش صبر على هذه الثلاث أو على هذه الاقدار فجمع الصيام أنواع الصبر الثلاث وأعظم ما يعين العبد على الصبر أمور كثيرة:

الأول: تذكر أجر الصابرين وما لهم عند الله سبحانه وتعالى وثواب الصابرين .

الثاني: النظر في نعم الله عليك إذا أصباتك مصيبة تنظر إلى من هو دونك وأعظم مصيبة منك وتستشعر نعم الله عليك .

الثالث: قصص الأولين من الممتحنين والمبتلين من الأنبياء والمرسلين والصالحين والعلماء فقفا قراءة قصصهم والنظر فيها وصبرهم وكيف أمتحنوا وأبتلوا وعذبوا فهذا لا شك مما يدفعك إلى الصبر خصوصًا على أقدار الله وهذا يحث العبد أيها الإخوة وخصوصًا من تعلم علمًا أن يصبر على نشره وتعلمه ستجد الأذى في بيتك من أولادك قد يكون من أهلك وأقاربك أذى في نشرك للعلم والخير يحتاج منك إلى صبر خصوصًا مع كثرة الفتن والملهيات لذلك الله عز وجل قال (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا) (طه - الآية ١٣٢) ما قال ءامرهم مرة مرتين ثم إن إنتهوا خلاص أديت الذي عليك، أصبر (وأصطبر عليها) صابر نفسك فالمسلم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (إذا كان مخالطًا للناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم) .

فنسأل الله عز وجل أن يجعلنا وإياكم من الصابرين وبهذا نختم نكمل غدًا إن شاء الله ونختم الدرس والله أعلم وصلى الله وبارك على نبينا محمد وجزاكم الله خيرًا .